نقوش على منديل عناة

المتوكل طه

تعاويذكَ يا نصفَ الجسد المبسوط، بحدّ السيف، تباعدنا عن درب التبّانات . . . ، هنا جسدٌ كان يعاركُ جيشَ الحالم بالزئبق والعرّافات. وعلى العظم البارز بالخضرة والامواج، تربّع باسم الرمح وَباسم السُمّ العرشُ، فأوقدت القارئةُ فناجينَ الرمل وكفّ الغيب، وساحت بين يديه مرايا من أمل الغابات. فلا بُدّ من الأفعى والشهد المالح في أطباق التاج، ولا بُدّ من الخيلّ تُرنّق برَّ الناطح بالطعنات.

وقرن الشمس الطالع من أحلام القابض روحَ الثور، سيأتي كل صباح حتى يرمي الجوع بأرض القمح، ويأتي روحُ الماء الساحر . . يبني بالجند سوارَ البرج وقبر الشاهد بالطاعات، يَجيء البرقُ وتبقى البّحَةُ، تمضي الخيل على الطرقات، يضجّ الموكبُ فوق الآجرّ، تلمعُ فوق اللحمِ الهيبةُ، ويظل هناك على ارض الكوخ الدمعُ تطارحه الآفات.

مَنْ يصنع صلواتك ويخلّد ملكوتَك يا كاهنَ مذبحنا، حتى تنكشف الأسرارُ على المدرج، ونغسّلَ جدرانَ المعبد بفرات عذب، مَنْ يَحمل رأسَ الكبش ليرميه وراء الريح، لتنكسر العاصفةُ الهوجاءُ، ومَنْ يحرقُ بالزبدة والألبان الصوفَ على العتمة، ليهلّ النورُ المستورُ، ومَنْ يكمل دمعَته حتى يحكم بالعدل، وتلبسه الأمطار . . مَنْ

يركب تختَ التبر ويحمله الفرسان إلى العيد؟
هنا غنيّنا لدموعِ الأرملة الثاكل، ورفعنا للنّحت ملامحنا المقدودةَ من صخر الجبارين، وراحت تنتصبُ الرايات .

مَنْ يحمل تاج الشوك نبيٌ من برق صلب، فارجع للجلجلة الممهورة بالدقّات، لتغسل اقدامَك بجدائلها المائية عاشقةُ المصلوب على القبلات . . . خسروا انفسهم لكنك إن متّ على درب الآلاَم ستكسب مهدكَ يوم ستولد فيك البشرى والآيات .

قد نحتاج إلى جيلين لهذا التيه الرمليّ ليدرك أحفادُ الأبناء مثالَ البذرة، أو ينقلب سرابُ الرمل لمُزْن تأتي بالخيرات . ولا بدّ من الموقد كي نحشوه بأنفاس الماس، ليبقى جمرُ الحلم يعبئ خارطةَ الدار إلى البيت؛ ضريحِ الاجداد، مقامِ التاريخ، . . . إلى منزل هذا الجنرالِ المُمسك بالشارات .

وكم نحتاج لنختلف عن البحر الممتد، محيطاً حول قلائد هذي الناس، قيوداً من مطرقة العسس، ونَطْعاً من أسئلة الخبزَ، لأبناء التيه الآتي بالحسرات .

وهل نحتاج لعمر آخر حتى نذكر غُزلانَ الشهداء المُرسلة بأرجاء الأرض، لنبكي من عين الصدر، وفاءً، للأيتام المذبوحين بسيفِ أناشيد الثورات؟! .

أقول سلاماً نهرَ الحزن، سلاماً نارَ الأوجاع الملقاة على الأضلاع، سلاماً من مذبوح الأيام السود . . . على الناسِ مسرّةُ أعراسِ القهر، وفي ليل الميلاد الأزرق موتٌ يفترعُ الأوقات .

وهل أصرخُ: إن الدنيا أرضُ خسارات تلقاها أرضُ خسارات الروح، أم الدنيا ساحاتٌ للمشنقة المكرورة، تتّصل ببرّ الكابوس الممتدِ إلى موتِ الساحات .

هزمتك الصدفةُ في مأتم أمتنا الواسع، لم يمض النحلُ إلى السفح العالي . . . استسهل زهراً أقربَ من ريح الربوات . وفاض الشمعُ . . قليلاً، فاجتاحته النارُ، تباعاً، حتى احترقت في الشهد الملكات . . ولم يبقَ لأطفال الدعوة إلاّ حملُ تراثِ المذبحةِ

ورأس الطّفّ، لتولدَ من غيبةِ سردابٍ وليّ الثأرِ صلاةُ الجَمْعةِ في الحَوْزات .

ومَنْ تهزمه أصابعُه الأقربُ يبقى العرشُ عضوضاً فوق كواهله المشروخة . ليس لمشنقة الضعفاء سوى الموت الكامل، بل ليس من الحكمة أن تلهجَ ألسنةُ التبرَير بنصرٍ مهزومٍ قد فات .

وهل أغوتك النارُ على بلّور الوجه، وناداك الرمّانُ المصطافُ على التلاّت، وأعطتكَ الأفعى حرَّ الصيف المكنونة، وجاءتكَ على قدميها عاريةً مثل النوم؟؟
أنا لم تعرفني الأُنثى، لم تشربني أطيارُ اللذّة في باب الفندق أو عند شبابيك التذكرة العاشرة الراحلة إلى وحدتها . . كنتُ كمَنَ يسكنه التيهُ وحيداً في ليل قطار المدن المجهولة . . كنتُ كمَنْ ولدته النخلةُ في برد خريف ذابل . . . لم تعشقني الزنبقةُ الموعودةُ للغرباء، ولم تهتف لي عينان من الشهواتً .
ما زلتُ هناك علَى أرصفة الأضواء تبادلني القططُ السائبةُ مواءَ الجوع أو الرغبات . .
ولم يأخذني الشُرَطيُّ المرهقُ للأسئلة المرصوفة مثل طواحين الضبع، رَآني، وابتسمت بدلتُه للمطر المتواصَل، قالت لي خطَواتٌ مسرَعةٌ للبارِ ودفءِ المرآَب: انهضْ، واتركْ هذا الوحلَ اللامعَ . َ. حتى تأنسكَ الخطوات . .

قمتُ . . وأسندتُ الى الحائط رأسي، كان ثقيلاً مثل الثلج اليابس، ومشيتُ على غير هدىً . . حتى أشفق مني الريحُ وكلبٌ يعوي في العتمات . .
يا نومي الصعب!
لماذا رغم وصولي البيتَ، أرى كابوسَ الوحشة يملأ أحلامي اليقظات؟؟
ما زلتُ وحيداً مثل البئر، يتيماً مثل الفشل المُرّ َ، وميْتاً في أرض الأموات .

بشراك يا حزنُ . إن الحزنَ أشعاري ونبـضُ قلبـي وعُشّـاقـي وسُـمّـاري
يـقـيـم بـي مـثـلـمـا الأنـفـاسُ زاهـرةٌ في الصدر إن رهجت بالدمع أسراري
وصـار وجـهـي الـذي ألـقـاهُ في رَهَـق ونَـوْحَ قـافـلـتـي فـي عَـتْـم أسـفـاري
وصار روحي وخطوي في مقاصدهاً وكـربـلائـي وخُـوّانـي وحُـضّـاري
يا حزنُ يكفي . أما للحزن من عُمُر يُـعـطـي لـهـامـتـه عُـمْـري وإعـمـاري
ويـفـتـدي مـذبـحَ الأحـزانِ مـن كـبـدي هـذا الـذي ذوّبـتـه الـنـارُ بـالـنـارِ .

دمعتك الذهبيةُ بين الغصنين أراها طاغيةً مثل الفتنة ، والقدّ من الفرحة فهدٌ ريّانٌ يغري بالنار ، أُعريّه من الصوف الناعم ، أدعوه لفانوسي َالماجن ، لكنّ الدمعَةَ في أرجوحتها الواسعة تروح إلى شهوتها اليانعَةِ ، فما بالُ الشيبِ يميلُ إلى الشمسِ البكْرِ ، وقد أعشاه الليلُ ، َوفاتته العتبات .

وهل تأخذُ يا شيخُ حنينَ النوق من الرمل؟ وقد أدركتَ مفازات العُمْرِ مراراً؟ ؟

يكفي ما سافحتَ ، على كُرهٍ ، حالمةً ، يكفي ما أردى السيفُ ، وغطّى ، في شهوته الفظّة ، سوسنةَ الرَعْدات .

ألا يكَفي ما يذبلُ في الطْلع من الحزن؟ وهل تأخذُ أيامَ القادم؟ ! . . يكفي ما جاء من الخيل الصاهل . . ، فاتركُ للقادم ، عند الأطلال ، نسيبَ الحالم بالغيباتْ .

وانعمْ في أحزان الصمت بما كانَ ! ! هو العُمْرُ ومَيضٌ من برق خَطّاف يأتي ، -أو ما كان- . . تراءى ثانيةً ويغَيبُ كما جاء . . وما ظلّ ستذكره الدمعاتً ! ! فإنْ كانت مرآةُ الحُسْنِ ، تجمّلْ ! ! أو كانت للقُبْحِ ، فردَّ إلى نحر المرآة الصورةَ والقَسَمات . . وإنْ كانتِ للصيد فلا تعبث بالسَّهْمِ ، وإنَ فاضت بالماءَ ، فسهَمك برقٌ في الغيمات .

تليق بك الأحزان ، أبوك المحبوسُ ببطن الحوت ، وجدّك أيوبُ الطاعون ، وخالتك الخنساءُ ، وهاجرُ عمتّك المنبوذةُ ، وأخوك السبْطُ ، وأمّك من منديل عناة . فاخرج من ثوب الأيقونة بالافراس المرقومة حتى تتحدَّ الأحجارُ بأرض السور طريقاً للعربات . هنا أزمانُ الدائرة المغلقة على مائدة اللحم ، وكان الشاعرُ قد خانَ الحبرَ ، فماذا تفعل أصداءُ الطاووس بلا كلمات؟ وكانوا قد باعوا البوقَ لأرض الميعاد . . فلا بأسٍ ، انتظروا حتى تكتمل البيعةُ ، ثانيةً ، للكلمات . انتظروا ، فلقد جاء الليلُ ، وزال الليلُ ، وظلّ الطفل بمهد النورِ ، يحاول ترتيب الأصوات .